(٤)

موالد الكلمات
وتتابع الآيات

حديث الجمعة

٩ رجب ١٣٧٩ هـ - ٨ يناير ١٩٦٠ م

الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.. ولا إله إلا الله.

أفضل ما جئت به أنا والنبيون من قبلي، شهادة أن لا إله إلا الله. وأفضل ما جاء به الهدي، وأفضل ما جاء به العلم، وأفضل ما جاء به الكشف، وأفضل ما جاءت به المعرفة، وأفضل ما أدركه الوعي، الله أكبر.

تحتفل البشرية في هذه الأيام بمولد كلمة من كلمات الله على هذه الأرض، تجدد بها للكلمة على الأرض مولد. ولم ينقطع بها للكلمة على الأرض مولد. علَّمت الناس وعلمها الناس، فعرفوا بها جديدا من قديم، وعرفوا عنها قديما لجديد منها.. مثالا لآدم.

كانت للناس وكان الناس لها. فأنكر عليها الناس فخُرِموها. ولم يتابعها الناس فقطعوها. وتناساها الناس فما وصلوها.

ولكنها رحمة وخلاص ما قطعتهم. وسفينة نجاة لهم دواما وصلتهم. تجددت فيهم بذاتها بينهم رجلا منهم، يتحقق به فيهم لهم من الله رجاء، ويتوفر به لآبائهم من الله جزاء.

إنها حجر الزاوية. إنها بداية الحق للناس. وإنها نهاية الخلق من الناس. بها يقوم الناس. وبها - تقوم فيهم - يقومون بدورهم في الناس. إنها ثمرة الخليقة، وجزاؤها من الحقيقة. وإنها كحقيقة أصل لخليقة...

إذا تخلت عن وصفها من الخلق، رغبة في الحق، فتجددت من أثوابها في الخلائق، إلى عالمها من الحقائق، بدأ معراجها في الحق. فإذا ما استكملت في معراج الحق حقيقتها، أحبت أن تعرف - لنوعها من خليقتها - فجددت بمكنتها خلقها بالاصطفاء من سابق تواجدها في خلقيتها.

إن الكلمة في تمامها، اصطفت لنفسها من أديم نشأتها في قديم أنانيتها، اصطفت آدمها، على مثالها وعلى صورتها، وعلى حقيقتها.

إن كلمة الله هي المرادة في مقال الهدي الرباني من أن (الله خلق آدم على صورته)[1]. نعم على صورته، لأن صفوة الآدمية، وصفوة البشرية، منتهية إلى تواجد كلمة لله منها، هي خلاصة الأشياء، وصفوة الأحياء، وغاية الحق من خلقته للخلق...

وأن الكلمة المثمرة المنتجة المستخلَصة من الوجود المادي المخلوق، كان الوجود المادي المخلوق أصلها، وإن كان في حقيقته من قديم مثالها فرعها. فإذا أرادت أن توجد فرعها منها على مثال من أصل لها اصطفت من الخلق لنفسها. وفي هذا المعني ومنه وبه يشير الكلمة عيسى عليه السلام إلى أحد حواريه بقوله (على هذه الصخرة أبني كنيستي)[2]. ومن هذا المعنى وفيه وبه يقول الكلمة التامة - محمد به الصلوات - مشيرا إلى عَليَّ، هذا باب مدينتي، من كنت مولاه فعليّ مولاه! ولم يقل إني مولاه للوجود، ولا مولاه للشهود. كما لم يقل من قبله في ترتيب أزماننا الكلمة عيسى. فقد قصر أمره وكنيسته على صخرة من أصفيائه. فهي كنيسته وخاصته ودار جماعته. إنها مدينته. إن هذه الصخرة بابها ودليلها. هذا ما عناه عيسى وعين ما قصده محمد. إن العموم والشمول أمر محرم على كليهما. وإن مثَّله آدم في بنيه أصلا لأبنائه، ومظهر وجود، وأصل شهود، فما زال المحرم محرما عليه.. إذ قبل آدم مئات الآلاف من آدم، في تواجد لا بداية له، وفي تواجد لا نهاية له.

إن الشمول والعموم والإحاطة من شأن الشامل المحيط، الذي أظهر معاني الشمول في الوجود مقيدا فيه. فهو المطلق الذي لا حد له، والواحد الذي لا عد له، والأحد الذي لا تعدد معه، والغيب الذي لا إحاطة به. إنه المعروف. إنه الموصوف في كل موصوف. إنه البعيد عن البال، العزيز على النوال، لا يُحاط به. ويُحاط بعلمه فيما حوَّط الانسان، بما أودع فيه من المعرفة والوعي، ورقة في كتاب، أو حرفا في كلمة، أو كلمة في حديث، أو كتابا في وجود، أو وجودا في تواجد، أو تواجدا في معروف، أو معروفا في مطلق، أو مطلقا في غيب.

إنه القريب حتى لأنت. وإنه البعيد حتى لغيب.

ها نحن اليوم نحتفل بمولد كلمة ربا لوجود. وقد احتفلنا في أمس بكلمة جامعة، وروح مؤيدة، وآدم ظاهر، وبداية لخلق مخلوقة خالقة، ربا لعالمين، وروحا لكلمات هي سر لأرباب لعوالم، ذاتا مؤيدة بروح من قدسه، هي في ذاتها كلمات لله تمت. وهو في روحها رحمة من الله عمت.

فما عرفت البشرية الكلمة، وما أدركت جماع الكلمات، وما واصلنا الحياة بالخلقة بفعلنا، تخلقا بأخلاق أصلنا، المتخلق بأخلاق أصله، من كلمة الله، المتخلقة بأخلاق أصلها من روح قدس الله، المتخلق بخلق أصله، من جماع صفوة الله، خروجا لاسم الله من كنزيته، وظهورا منه لخلقه في ثوب بصفات خلقه، على ما قديما خلقهم يتخلقون به، ويتحققون به، على صفات حقهم من حقه. قديما كأنهم، وقادما كأنه.

فما ظهر الخلق، إلا ظهورا للحق. وما تحقق الخلق، إلا ظهورا للحق. فلا خلق ولا حق. ولا حق ولا خلق. إنما الخلائق حقائق، وإنما الحقائق خلائق.

بهذا جاء العهد القديم، في صحائف الناس، في كتاب موسى، أو صحائف الناس من كتاب إبراهيم. وقد تجدد هذا مع محمد، جديدا لقديم، وما كان محمد إلا كتاب الله وقرآنه. وما كان بينهم إلا يده ولسانه، وما سار فيهم إلا قدمه من حقه، وعنوانا من خلقه لخلقه، على مثال من وجوده في حقه لحقه.

فما جاء الناس إلا جيئة الحق بينهم دائبة. كشفها ظهوره، وعنونها بعثه تطورا لذات من كلمة لله في البشرية، كلمة تتواجد من عبد الله. كما تواجد عيسى من أمة لله، وما خرج إلا مخرجه فقد كان شرفه أن يكون ابنا لآدمية. خرج مخرجه من مريم الطاهرة لم يمسها دنس الحياة الدنيا. من نفس آمنة مطمئنة راضية مرضية راجعة آيبة. وما كانت إلا وليدة وهب من الله.

هذه هي أمومة محمد بعينها وبعنوانها من مولد أمومة عيسى من مريم. وقد شرف الله عيسى، إذ يقول له يا {ابن مريم}، فما كانت مريم إلا شجرة قدس، وسدرة نهاية، أمة لله، وعبدا له.. فيحاء روحاء. يستظل بظلها ويجاب في ظلها الرجاء. فما خرج عيسى مباركا إلا من أمومة مطهرة مباركة مخرج محمد من نفس بوركت، وآمنت فأمنت، وكان منها الأمان، وفيها الأمان وبمحبتها الضمان، وبوليدها الخلاص والإيمان. فكان ابن آمنة أمن الناس كما كان ابن مريم رِيَّ الناس.

إن ذوات محمد أحواض وأوادم الحياة، وإن عيسى منه ماء الحياة. لا دينونة، إذا ما دخل البشر في القلب الرحب، والساحة السمحاء، من قلب كلمة الله يسوع. أما رحمة العالمين لا يدين ولكن يغفر للمدين فيقول (أمة مذنبة ورب غفور)[٣].

وإن مياه الحياة من سماء الفطرة، تنشق عنها عيون الأرض من حين إلى حين، تجمعت مياهها في أحواض الله من أمة محمد من أهل بيته في عليّ والزهراء وعترته من صفوة الناس في مثاليته.

ترك في الناس الثقلين كشفا لكتاب الوجود الأبدي القديم في مسطور من كتاب، بمرصوص من أحرف في كلمات، ومجموع من كلمات في سور، وجمع من سور في كتاب. بينها بيت العنكبوت

واهيا، هو بيت الجبروت طاغيا. وعنونت بيت الرحموت قريبا مدانيا، أولية بيوت على مثال من قديم، لأن بيوتا رفعت وسعدت ونصبت عاملة جاهدة، فاستقامت نيرة صاعدة، ثم استقامت إلى كسب النصب، وإلى تحصيل ثمرة التعب، فحنَّت إلى نشر رحمتها وإلى جديد من إيجاد في الخلق لكلمتها...

فبدأها إمام البيوت، وإمام النبيين، مدانيا إلى أرضكم، فكان بيته أول بيت وضع للناس - بعد رفع - جديدا من قديم لآدم هو بين آدم أصله القديم وآدم فرعه الجديد. يكمل القديم فرعا، ويتواجد به الفرع أصلا كشفا لناموس الله في عالم خلقه، عنوانا على ما أودع وأبدع في عالم حقه. ربوبية لعبودية وعبودية لربوبية، الله من ورائهما محيط، بلطيف الله يلحق الأبصار والبصائر من عباده وحقائقه. يشهدون جديد الله فيمن حقق من آبائهم وأصولهم من قديم خلقه. بعين الله فيهم، الله ورائهما المحيط.

بذلك يتعارف الله إلى الله. بذلك يتعارف جديد الله لقديم الله. ويتصل قديم الله بجديد الله. وتعالى الله في قديمه، وتعالى الله في جديده. كل من عليها فان ويبقى من كان وجهه من جديده على مثال من قديمه -{كل من عليها فان}[٤]- ممن أرادوا {أن يطفئوا نور الله بأفواههم}[٥] -جاحدين منكرين - والله متم نوره في الطاهرين الصادقين، فذاهب بالجاحدين - وباقٍ بمعناه من وجهه في الطاهرين الذاكرين غير الجاحدين، ويبقى وجه ربك. يعرفه الناس ربا للناس. ويعرفه الله للناس عينا للناس. يعرفونه عينا للناس بشهادتهم أن لا إله إلا الله، ويعرفونه ربا للناس، فيمن اختاروا للربوبية عليهم من الناس، ربوبية مرضية مختارة فيمن أظهر الله لهم بين الناس من الناس من عباد الرحمن من أهل رحمته معبدين أنفسهم لربوبية معلومة هي وجهه من ربوبية عباده، {يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما}[٦]. هذا ظاهر وصفهم وهذا وصف معناهم للدلالة عليهم. أما المُجتمِع عليهم فله فيهم شأن آخر وفهم آخر، مدرك عنده في نفسه في توحد معهم توحدا مع الله. وبطرق أبوابهم عروجا إلى الله، وقراءة كتابهم من أنفسهم كتابا لله، واستماع القلوب لأحاديثهم استقبالا لخطاب الله من عباد الله.

{وذلك دين القيمة}[٧]. وإننا إذ نحتفل في هذه الأيام بظهور حقيقة من حقائق الله بمولد ثوب من خليقته على مثال من خلائق، ما أجدرنا أن يكون هذا الاحتفال قرين بكاء وأنين على ما أضعنا من أمر أنفسنا، وعلى ما أضعنا من أمر ديننا.

ما أراد عيسى بموائده ملء البطون، وما أراد بمشاهده إدخال المسرة على العيون، وما أراد بآيات الله معه إعجازا للعقول. فما فَرَقَ بينه وبين الناس، ولا مَنَع ما به عن أن يكون بالناس، وقد أراد أن يكون بينهم مثلا أعلى لهم يحتذونه فما تمثلوه وما احتذوه. أغلقوا الطريق لا يسلكونه، وإلى ما يحقق

من مزيد من الله في معراجه، لا يتابعونه فيكسبونه. ولكنهم ألَّهوه وعبدوه. وما ألَّهو إلا أنفسهم عليهم، وما عبدوا إلا أنفسهم بعقولهم خلواء، وهو من فعلهم براء، وهو مما أسندوا إليه بريء. وليتهم عبدوه! وليتهم أدركوه! وليتهم ميزوه! وليتهم إلى الله كلمة منه ووجها له أضافوه! عبدا بذاته شهدوه، ووجها للحق بروحه تطلعوا إليه بروحهم فأدركوه وبالحق في أنفسهم وصلوه. ولكنهم إذ يزعمون الاحتفال بمولده والمتابعة له إنما يعملون على تأليه أنفسهم عليهم، يزرعون الشوك في طريقهم، ويخلقون القطيعة لقريب الله في أنفسهم. لا يدرون أي منقلب ينقلبون. وهم إن عبَّدوا أنفسهم لله فأشرق نور النبوة على عقولهم، فعرفوا العقل والضمير رسول الله الحي بين جوانحهم، فاستقاموا على الطريقة لسقاهم الله ماء غدقا.

ماذا يطلب الناس؟ وماذا يذكر الناس؟ وهم يحتفلون بمولد كلمة من كلمات الله سيدا وحصورا ومثالا مضروبا لأمة محمد. الكلمة الجامعة للذوات، والروح الجامعة للكلمات، والبيت الموضوع، من قديم مرفوع، والذي يرفع لكلم يوضع، دورة للزمان. ومحراب قدس للمكان، وقبلة مصلى لأهل الطلب والبيان، وبيت مطاف لأهل الأدب، وأرضا مشرقة بنور ربها لمن دفن نفسه في تربها من رهب.

ماذا أدرك الناس؟ أيُحتَفل بمولد الكلمات بموائد النزوات؟! ومجامع الشهوات؟ واقتراف السيئات؟! أهكذا يذكر أهل رحمته؟! أبهذا يشرف عند الناس عباد طاعته ومحاريب قدسه، وسفن النجاة بحكمته، وأيدي النجدة بعزته، ووجوه الجمال بطلعته، وأقدام المسير في ملكوته، وقلوب الخلاص من جبروته؟! أهكذا! بالمراقص، بالمطاعم، بالمساخر، بالنساء، بالفجور، بالخمور، بالملاهي، يكون الاحتفال بموالد الجَّد، بموالد الكد، بموالد النصب والوعد؟!!...

ألا يكون للعاقل في هذا عظة؟ ألا يتخذ منه المستقيم على كتاب من كتب الله، ومع نبي من أنبيائه، أو حكيم من حكمائه، ألا يكون له في ذلك موعظة؟

إن الذين يجحدون هذه المظاهر، وينكرون الحق في هذه المناظر - أيا ما كان لهم - فإنهم مجزِيون بحديثهم، مقدَّرون بمدركهم.

إن الفطرة والعقل أساس كل معرفة وكل وعي. وإن العاقل المفكر في دائرة الفطرة، وإن الساعي المدبر في دائرة الفطرة، إنما يغير شيئا مما في نفسه، وإن الله مغير ما به يوما {إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم}[٨]. {والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا}[٩].

إن استقامة الإنسان على مدرك عقله، ومتابعته لحديث ضميره، إنه واصل به إلى الخير يوما. (استفت قلبك وإن أفتوك وإن أفتوك وإن أفتوك)[١٠].

إن الله معنا فراقبوا الله في أنفسكم.. هدانا الله وإياكم سواء السبيل.

لا تَعْبدوا أنفسكم معه في فتنة من حركات. ولا تَعْبدوا أنفسكم معه في فتنة من ألفاظ. ولكن عبِّدوا أنفسكم معه في وعي عنه، إنه أقرب إليكم من حبل الوريد. ولن يتحقق لكم هذا الوعي مستقيما إلا إذا أدركتم دماءكم تجري باسمه، وقلوبكم تخشع لذكره، ووجوهكم قد عنت لكلمته.

اذكروا الله واسألوه، وجاهدوا أنفسكم واستهدوه، فإنه بكم راحم، ولكم رحيم، وعنكم راض، وعن فعلكم متغاض، ولسيئاتكم غافر، ولناصح فعلكم قابل، فلا تظنوا به الظنون.

ولا تمنوا على الله، ولا تمنوا على رسول الله، ولا تمنوا على رسل الله، ولا على جديد الحق من قديمهم، إن به التحقتم، وله عرفتم. فما كان محمد إلا إماما لهم ولحقائقهم. وما كان محمد في البشرية غيرهم أو دونهم. فإنه وإياهم على جديد لهم متوال لا يزول ولا يحول، إن عرفتموه أو عرفتموهم، أو عرفتم منهم، فذروا البيع، والمتاجرة مع الله بالثواب والعقاب، واسعوا لذكر الله، وادعوا الناس لذكر الله، واحرصوا على ذكر الله. {وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما}[11].

اشهدوا أن لا إله إلا الله في طيبكم واستعيذوا بالله في طيبكم من الشيطان الرجيم في خبيثكم. فلا رجيم إلا معكم، ولا رحيم إلا عليكم. لا إله إلا أنتم ما شهدتم أن لا إله إلا الله. ولا أكبر على الأشياء إلا أنتم ما شهدتم أن الله أكبر. وقد خلق كل شيء من أجلكم. فلا تجهدوا أنفسكم وراء الأشياء، وقد خلقكم من أجله فلا تعبثوا بمعاني الحياة في معناكم - إن خلق السموات هو كبير خلق الناس فأنتم عاملون وقلب رسوله لكم جامع علما على رب العالمين.

فاعلموا أنكم عوالم الله في عالم الله من رسول الله، فيه تسيحون وفيه وبه تصبحون، وفيه وبه تمسون. ليلا تسكنون ونهارا تعملون.. وأعمالكم تكونون. وبها يوما تبعثون. وهي ما من الله تعطون، وعنه يوما تعرفون. فبالله تتحققون، وفي الله تتواجدون، وباسم الله تقومون.

اذكروا الله أينما تكونوا، وكيفما تكونوا، واعلموا أنه معكم بمشيئته على ما تشاؤون، وبرضوانه على ما ترضون.

فاقبلوا طريقكم إليه على ما رسمه لكم النبيّون، ولا تتابعوا طريقا أنتم له ترسمون.

واسألوا الله أن يكون لنا ولكم راحم. وأن يكون معنا ومعكم مسالم. وأن لا يحرمنا فيضا منه من المراحم ومن النعمة والمناعم.

ونسأله أن يوفق ويزيد من إيماننا به، لنا معنا قائم. ونستعينه أن ندخل كافة في السلم معه، بسلام نقيمه في عالمنا مسالمين، وخصام نجانبه في عالمنا لعباده مخاصمين، حتى يتم نعمته علينا بسلام وأمن آمنين. إن رحمة الله معنا، ورحمة الله هي الغالبة، ولها الغلبة على من يظهرون بالغلبة من الطاغين.

نسأل الله الرحمة والهداية لنا ولهم، والتوبة والمغفرة لنا ولهم. كما نسأله أن يولي أمورنا خيارنا فضلا منه علينا، وأن يمنع عنا عدله بالطاغين جزاء لنا، وأن يجعلنا من المغفورين عند أهل حضرته من المذكورين. فهو الرحمة والسلام والحياة، ومنه وبه كل شيء حمدا وشكرا لمولانا رب العالمين والآخذ بنواصينا إلى الخير فهو نعم المولى ونعم المعين.

أضواء على الطريق

إننا لا نقول لكم أبدا (لا تستخدموا منطقكم وآمنوا فقط).. وإنما نقول دائما (استخدموا ما أعطاه لكم روح الحياة العظيم، تفكروا، تأملوا، اختبروا، امتحنوا، إن كان ما نأتيكم به مذلا أو قاسيا أو سافلا فارفضوه) ...

لن تنقلب الدنيا الخالدة إلى وميض يعمي الأبصار، وإنما سوف يشرق نور الحقائق الروحية تدريجيا كلما ازداد انتباه الناس إلى المعرفة العظيمة التي نقدمها إحياء لما مر بهم وتركوه، وسوف نتمكن من إبرازها كلما تيسرت أجهزة أكثر لتستخدمها حكمة الروح الأعظم.

ويجب أن نذكر دائما أن الأمور الروحية تحتاج إلى تربية وتقدم مطرد، أما التقلبات الفجائية فإنها لا تستمر. وقد أريد بعملنا أن يكون دائما ونحن لا نستطيع أن نخدم إلا ويدنا مبسوطة بالعطاء.

عن السيد الروح المرشد (سلفربرش)

مصادر التوثيق والتحقيق

١ حديث شريف: "خلق الله آدم على صورته." أخرجه البخاري ومسلم.

٢ "وَأَنَا أَقُولُ لَكَ أَيْضًا: أَنْتَ بُطْرُسُ، وَعَلَى هذِهِ الصَّخْرَةِ أَبْنِي كَنِيسَتِي، وَأَبْوَابُ الْجَحِيمِ لَنْ تَقْوَى عَلَيْهَا." (مت ١٦: ١٨).

٣ حديث شريف: "دَخَلْتُ الجنةَ فرَأَيْتُ في عارِضَتَيِ الجنةِ مكتوبًا ثلاثةُ أَسْطُرٍ بالذهبِ - لا بماءِ الذهبِ: السَّطْرُ الأولُ: لا إله إلا اللهُ مُحَمَّدٌ رسولُ اللهِ. والسَّطْرُ الثاني: ما قَدَّمْنا وَجَدْنا، وما أَكَلْنا رَبِحْنا، وما خَلَّفْنَا خَسِرْنا. والسَّطْرُ الثالثُ: أُمَّةٌ مُذْنِبَةٌ ورَبٌّ غَفُورٌ". أخرجه الرافعي في تاريخه (٣/ ٩١) ، الإمام أبو القاسم في تاريخ قزوين، وابن النجار في تاريخ بغداد عن أنس ابن مالك. ويعتبره المحدثون ضعيف الإسناد.

٤ سورة الرحمن - ٢٦

٥ سورة التوبة - ٣٢

٦ سورة الفرقان - ٦٣

٧ سورة البينة - ٥

٨ سورة الرعد ١١

٩ سورة العنكبوت ٦٩

١٠ من الحديث الشريف "استفت قلبك، البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك." أخرجه أحمد بن حنبل والدارمي.

١١ سورة طه ١١١